عناصر القوّة

نذكر على سبيل المثال لا الحصر نماذج أربعة هي:

أ. الدقّة و الشموليّة التي قد يصحّ التعبير عنها باللامتناهية في معالجة الأفكار، فالمتكلّم القديم عندما يشتغل بمسألةٍ كلاميةٍ نراه يتفحّصها تفحصاً دقيقاً و يعالجها معالجةً فاحصةً، و التراث الكلامي المدوّن شاهدٌ ناطقٌ عندنا اليوم على حجم الجهود التي بذلها المتكلّمون في دراساتهم المدوّنة إن في نفس المصنفات الكلامية أو في علم الأصول،[1] و طريقة «إن قلتَ: قلتُ» واحدةٌ من أبرز الطرق الشاهدة على هذا الأمر.

علم الكلام الجديد قد تشوبه سرعة الحكم و عدم الدقّة و عدم الشمولية، فهو بحاجةٍ اليوم إلى عدم استعجال النتائج لكلّ الأمور و عدم حرق المراحل الطبيعية، و في هذا السياق أيضاً يلاحظ أن بعض الدراسات الكلامية الجديدة مبتلاة بعدم الدقة و الشمولية في النطاق اللغوي و الاصطلاحي؛ فاللغة المتداولة لغةٌ مشوبةٌ أحياناً بالتشويش و عدم الشفافية و فتح الباب للاحتمالات العديدة في حين صارت جامعيّة و متانة اللغة

ضرورة لإيجاد نموٍّ صحيحٍ و تصاعديٍّ لأيّ علم.

ب. المواكبة الدائمة للمستجدات الفكرية في المجتمع الإسلامي، و هذه ميزةٌ مهمةٌ في علم الكلام،[1] فلا تكاد تسمع بطرح أو كتاب أو نقد أو نظرية... صدرت و تناقلتها الألسن في المحافل العلمية حتى ينبري المتكلّمون لتقييمها و الرد أو تأييدها....

على كلّ حالٍ لإبداء رأيٍ فيها، و هذا امتيازٌ يطالب الكلام الجديد اليوم بإعادة تمثّله و بصورة أفضل، فدراسات كثيرة اليوم مضى عليها قرن أو قرون تصنّف لدى البعض بالحديثة جداً أو الأحدث و كأنها آخر ما تمخّض عن العقل البشري، في حين أنّه مع ضرورة قراءتها بعمقٍ و جدّيةٍ سيما الدراسات التأسيسية الغربية و غير الغربية فإنه لابد من التوجّه إلى الدراسات الواسعة المعاصرة سيما في العقود الثلاثة الأخيرة على مستوى الساحة العربية و الإيرانية و الغربية، و بالأخص ما ظهر، عقيب انهيار الاتحاد السوفياتي و بروز ظاهرة الأحاديّة القطبية.

ج. اتسم علم الكلام بإجاباته الحاسمة و المطئنة في تلك الآونة ليس لميزةٍ خاصةٍ به بل لأن العقل البشري قبل عصر النهضة كان كذلك، أمّا اليوم فإن علم الكلام الجديد يُخشى عليه من الترعة التشكيكية الشاملة و المدمرة، و هذا يفقد علم الكلام دوره الحضاري في إشاعة الطمأنينة و الاستقرار في نفوس المناصرين للاتجاهات الكلامية.

لا نريد العودة إلى عصر اليقين هذا إذ يبدون من الصعب تحقيق ذلك، لكن علم الكلام اليوم مطالبٌ ـ و بالتعاون مع بقية العلوم سيّما الفلسفة و علوم الدين الأخرى ـ بالتفكير في حلٍّ لمشكلة الاضطراب و التذبذب النفسي و لو بإجراء تعديلاتٍ على مفهوم اليقين العلمي، و إلاّ فإن بقاء هذه الحالة سوف يساهم في إعاقة عملية التطور الحضاري سيما القائمة و المعتمدة على الدين.

د. خصوصية الأصالة التي تمتّع بها علم الكلام القديم لأسبابٍ عديدةٍ، فعلم الكلام هو من العلوم الإسلاميّة الأصيلة؛ لأنّه ولد قبل عصر الترجمة أي أنه لم يكن متأثراً في انطلاقته بالثقافة و الفلسفة اليونانية، بل إنّ التاريخ الكلامي يؤكّد أنّ هذا العلم قد وقف موقفاً حذراً إلى حدٍ بعيدٍ من التوجّهات الفلسفية التي استقت من الفكر اليوناني بالخصوص أسسها و منطلقاتها و بناها التحتية، و هو ما سبّب أو كان على الأقل أحد أسباب الخلاف الفلسفي الكلامي في التاريخ الإسلامي سيما القرون الخمسة الأولى.

لا يعني ذلك أن علم الكلام لم يتأثر بالأفكار الواردة على العالم الإسلامي من شرق الأرض و غربها، و أنّ كل ما كان عنده هو وليد مقولاتٍ و تصوراتٍ داخليةٍ لم تتلاقح مع أيّ واردٍ خارجيٍّ، بل كانت في قمّة القطيعة معه، و إنما المقصود هو أن الطابع الذي حكم هذا العلم سيما في انطلاقته التي تعود إلى بدايات نشوء فرقة الخوارج في الإسلام هو طابع الأصالة.

بالتالي فكانت المزاوجة بينه و بين أي فكر خارجي مزاوجةً إيجابيةً و من الدرجة الثانية.